الفصل الثالث

ملاحظات على كتب الغزالى

ظهر لى أثناء الاطلاع على كتب الغزالى هذه الملاحظات :

أولا : أن الشك الذى اعترى الغزالى ، كان له تأثير كبير فى تنظيم حياته العلمية . فالغزالى شك ، وكان شكه مبكراً على قرب عهد بسن الصبا . فنظر إلى الفرق الموجودة فى عهده ، وحصر الحق خلالها . ثم نظر فيها على هذا الترتيب :

١ — علم الكلام . وألف فيه ما شاء الله أن يؤلف .

٢ — الفلسفة العقلية . وألف فى نقدها ما شاء الله أن يؤلف .

٣ — مذهب أهل التعليم . وألف فى نقده كذلك .

٤ — التصوف أو الفلسفة الروحية . وألف فى تأييدها ونصرتها أيضاً .

ولقد حدد لنا موقفه من هذه الفرق جميعاً . فبهذا نستطيع ، إذا وقع فى يدنا كتاب من كتب الغزالى ، أن نعرف على وجه التقريب متى ألفه ، والروح المسيطرة عليه .

فمثلا كتاب « ميزان العمل » أعيانى أمره ، وحاولت طويلا أن أعرف متى ألفه ، فلم يتيسر لى ذلك إلا بعد جهد جهيد .

ذلك أن الغزالى نص فى أوله ، على أنه ألفه على نمط كتاب آخر ، اسمه « معيار العلم » إذن لابد أن يكون « معيار العلم » هذا ، سابقاً على « ميزان العمل » .

ولكن متى ألف الغزالى « معيار العلم » ؟

بعد البحث الشاق . وجدت الغزالى ينص فى كتابه « تهافت الفلاسفة » على أنه ألف بصحبته — أى التهافت — كتاباً فى المنطق هو « معيار العلم » .

ولكن متى ألف الغزالى كتابه « التهافت » ؟

ينص « الغزالى » فى « المنقذ » على أن كتبه التى رد فيها على الفلاسفة العقليين ألفها فى بغداد .

فيكون إذن كتاب « ميزان العمل » مؤلفاً فى بغداد . أو فى ما طاف فيه « الغزالى » من البلدان بعد الخروج من بغداد، أو فيما بعد ذلك أيضاً ، حين ألقى عصا التسيار نهائياً .

وهذه معرفة عامة، مع ما أحيطت به من صعاب .

أما الآن ، وبعد معرفة تاريخ « الغزالى » الفكرى ، الذى نظمه شكه ؛ وبعد معرفة موضوع كتاب « ميزان العمل »، وأنه لشرح وتأييد مذهب المتصوفة . فنستطيع أن نعرف أن « الغزالى » ألفه فى أخريات أيامه . بعد أن اهتدى إلى نظرية الكشف الصوفية ، وبعد أن ارتضى منهجهم فى طلب الحقيقة ، فراح يعمل لتأييده ونشره بالكتب المختلفة والدروس المتنوعة .

ثانياً : كان المنظور أن الغزالى ، بعد أن اهتدى إلى نظرية الكشف الصوفية ، التى جعلته فى مصاف أولئك الذين يطلعون على اللوح المحفوظ ، ويدركون أرواح الأنبياء ، ويخاطبون الملائكة ، لا يعالج مسائل ما وراء الطبيعة بالعقل ؛ بعد ما لم تصبح له به حاجة ، وبعد ما قضى عليه بالفشل والعجز ، عن أن يحل مشاكل ما وراء الطبيعة .

ولكنا نراه يزج بالعقل أحياناً فى كتبه ، التى ألفها بعد اهتدائه إلى الكشف الصوفى[١] ، حتى ليخيل إلى القارئ ، أنها نتاج العقل المحض ، ووليدة الفكر الصرف .

فمثلا يحدثنا عن مسائل هامة ، كان لها خطرها فى التصوف وفى الفلسفة على العموم[٢] ، فيقص علينا حقيقة الأمر فيها كما أدركها فيقول[٣] :

[وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب — يعنى بين الواصل وبين الله — ، يكاد يتخيل معه طائفةٌ الحلول ، وطائفةٌ الاتحاد، وطائفةٌ الوصول، وكل ذلك خطأ ، وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب « المقصد الأسنى » ...] .

---

(١) ككتاب « معارج القدس » وكتاب « المقصد الأسنى » .

(٢) هى مسائل الحلول والاتحاد .

(٣) ص ١٣٢ « المنقذ » .

وإذا انتقلنا مع الغزالى إلى هذا البحث ، فى كتاب « المقصد الأسنى » ، وجدناه يقول عن الاتحاد وبيان استحالته[١] :

[إن قول القائل : إن شيئاً صار شيئاً آخر ، محال على وجه الإطلاق ؛ لأنا نقول : إذا عقل زيد وحده ، وعمرو وحده ، ثم قيل : إن زيداً صار عمراً ، واتحد به ، فلا يخلو — أى الحال — عند الاتحاد .

إما أن يكون كلاهما موجودين .

أو كلاهما معدومين .

أو زيد موجوداً ، وعمرو معدوماً .

أو بالعكس .

ولا يمكن قسم وراء هذه الأربعة .

فإن كانا موجودين ، فلم يصر أحدهما عين الآخر ، بل عين كل واحد منهما موجود .

وإن كانا معدومين ، فما اتحدا ، بل عدما ، ولعل الحادث شيء ثالث .

وإن كان أحدهما معدوماً ، والآخر موجوداً ، فلا اتحاد ، إذ لا يتحد موجود بمعدوم .

فالاتحاد بين الشيئين مطلقاً محال] .

وتكلم أيضاً فى نفس الكتاب[٢] عن الحلول كلاماً شبيهاً بهذا .

وهذا بحث عقلى صرف ، واحتكام إلى العقل المحض ، مع أنه يحدثنا فى عبارة « المنقذ » ، أنه أدرك ذلك عن طريق الكشف ؛ ومع أنه القائل فيما سبق :

[إن العقل ليس له مجال ، فى مسائل ما وراء الطبيعة ، أكثر من إثبات ذات لمرسل ، والنظر فى دليل المعجزة ، وما وراء ذلك فالعقل معزول عنه بالكلية]

فهل الغزالى متناقض مع نفسه ؟ ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس ؛ أم له فى هذا وجهة نظر ؟ !

الواقع أن الغزالى متنبه للأمر ، وله وجهة نظر .

---

(١) ص ٧٣ .

(٢) ص ٧٥ .

وليس أدل على تنبهه للأمر : من أنه لما أقحم هذه النظرة العقلية ، بين مسائل هى نتاج الكشف والمعاينة ، لانتاج العقل، لم ير بدًّا من أن يبين فى نفس الكتاب، صلة العقل بالكشف فقال :

[إن العقل لا يصطدم مع الكشف فى شىء ، غاية ما هنالك ، أن العقل لضعفه وقصوره ، يعجز أحياناً عن أن يبدى الرأى فى مسألة ما ، فيسعفه الوحى أو الإلهام بتبيانها ، فتارة يدرك العقل وجه الحكمة فيها ، وهنا يستطيع أن يشد من أزر الوحى والإلهام ، بما يمكنه من فنون الأدلة الفكرية ، وضروب المحاولات العقلية .

وتارة لا يدرك وجه الحكمة ، فيقف صامتاً لا يملك المساعدة ، وليس معنى هذا ، القول باستحالة المسألة عنده ، ففرق كبير بين ما يعجز العقل عن إدراكه ، وبين ما يدرك وجه استحالته] .

فالغزالى بهذا ، يريد أن لا يستغنى عن العقل كلية ، بل يجعله — كلما أمكن — شارحاً للكشف والإلهام .

وهذا يفسر لنا الظاهرة التى تبدو فى بعض كتب الغزالى ، كمعارج القدس ، والتى كانت جديرة بأن تثير منا الدهشة والاستغراب ، تلك هى مؤازرة العقل لوجهات النظر التى يبثها الغزالى فى كتبه التى ألفها فى عهده الأخير ، بعد الاهتداء إلى نظرية الكشف الصوفية .

إذ كان المنظور أن يصور الغزالى مسائل هذه الكتب بقوله :

« كوشفت بكذا ، وشاهدت كذا ، وعاينت كذا » ولكنه لم يفعل بل حاط مسائله ونظرياته ، برعاية العقل وكلاءته ، حتى ليخيل إلى الناظر الذى لم يدرس الغزالى ، ولم يعرف من أمره ما عرفنا ، أن هذه المسائل وليدة العقل المحض .

أما الآن فنستطيع أن نقول : إن موقف العقل من هذه المسائل ، ليس موقف المخترع المبتدع ، وإنما هو موقف المساعد ، الذى لعب الدور الأخير ، أما الدور الأول ، فقد قام به الكشف والمعاينة .

وفى اختصار يريد الغزالى ، أن يجعل العقل شارحاً لمكاشفاته وإلهاماته

ولعل هذا هو السبب فى اعتبار الغزالى — فيما سبق — المنطق ضرورياً للمعرفة ، حتى للنبى والولى[١] .

فما دام الكشف بحاجة إلى شرح العقل له ، حين يراد عرضه على الغير فى صورة مقبولة ؛ وما دام العقل لا يؤمن عليه العثار والزلل ، إلا إذا اعتصم بالمنطق واهتدى بهديه ، يصبح المنطق ضرورياً للكشف والإلهام .

بيد أن هذا لا يعفى الغزالى من نقدنا الآتى . فإن هذا إن صح أنه ملحظ الغزالى ، فلن ينتج أكثر من أن معلومات الكشف والإلهام ، حين يراد إعلام الغير بها ، تحتاج إلى المنطق . لا أن صاحب الكشف والإلهام يحتاج لكى يتم له الكشف والإلهام ، إلى المنطق .

والغزالى فيما سيأتى — حيث اعتبر الجهل بالمنطق بعض الحجاب المانع عن الكشف — ادعى الثانية لا الأولى .

ثالثاً : عرفنا فيما سبق ، أن كتب الغزالى تدور كلها حول موضوع واحد ، ونزيد الآن أن هذه الكتب ، بينها روابط أخرى غير هذه الرابطة ، منها :

١ — التكرار :

فالشاهد أو المثال ، تجده فى الكتب المتعددة ، بنصه وصياغته ؛ مما يجعل القارئ عند قراءة الكتاب الثانى مباشرة ، يستطيع أن يدرك أنه للغزالى ؛ لأنه سوف يجد الأمثال والشواهد ، التى صادفته فى الكتاب الأول ، هى بعينها فى الكتاب الثانى .

فمثلا قوله : [وكم أحمق يتكايس ، فيقايس نفسه بصاحب الشرع ، مقايسة الملائكة بالحدادين . فيهلك من حيث لا يدرى] . مذكور فى مواضع كثيرة

---

(١) ولعل ذلك ، لأنه يقدمها لأناس ممتازين ، اشترط فيهم شروطاً خاصة . وطبيعى أن هؤلاء الأشخاص ، لم يصلوا إلى درجة الكشف ، التى وصل إليها الغزالى ، وإلا لما كانوا فى حاجة إلى الأخذ عنه فهم إذن فى طور دون طور المكاشفة ، وليس دون ذلك مباشرة ، إلا العقل الصافى المستنير .
لذلك هو يحاول أن يجعل تلك المعارف ، متآخية مع العقل ، ومتمشية معه ؛ حتى يتأتى الانتفاع بها .

من كتاب الإحياء ، وهو مذكور فى كتابه « معارج القدس[١] » وفى كتابه « ميزان العمل[٢] » .

وأحياناً لا يقتصر التكرار على الشاهد أو المثال ؛ بل يتجاوز ذلك إلى الفصل بتمامه ، حتى عنوانه .

فمثلا نجد الفصل الذى عقده فى « الإحياء » لبيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ؛ هو نفسه الذى فى « معارج القدس » .

والفصل الذى عقده فى « الإحياء » ، لبيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة ؛ هو عينه الذى عقده فى « معارج القدس » .

والفصل الذى عقده فى « الاقتصاد فى الاعتقاد » ، لبيان معنى رؤية الله هو عينه الذى عقده فى « معارج القدس » .

والفصل الذى عقده فى « الإحياء » ، لبيان مثال القلب بالإضافة إلى العلوم ؛ وذكر فيه الحجاب المكون من الأمور الخمسة ، التى تحول بين مرآة القلب ، وبين اللوح المحفوظ مذكور فى « معارج القدس » .

ثم إن الأبحاث المتعلقة بتعداد قوى النفس . من المخيلة ، إلى الذاكرة ، إلى غير ذلك . والمقسمة للعقل إلى عملى يتعلق بالجنبة السفلى ، ونظرى يتعلق بالجنبة العليا . والمعددة لأمهات الفضائل ، والرذائل . كل هذه الأبحاث موجودة بصورة واحدة فى كل من « الإحياء » و « ميزان العمل » و « معارج القدس » .

وأيضاً البحث الذى ذكره فى « الإحياء » من أنه لا فارق بين العلماء النظار وبين المتصوفة . فى نفس العلم ، ولا فى محله . ولا فى سببه ، وإنما الفارق فى جهة زوال الحجاب ، مذكور فى « معارج القدس » .

وأحياناً لا يقتصر التكرار على الفصل أو الفصول . بل يكون الكتاب كله مكرراً لكتاب آخر . فمثلا كتاب « الأربعين فى أصول الدين » كتاب مساير للإحياء ، مسايرة تكاد تكون تامة ، حتى فى تعداد الأبواب ، وأسمائها ، وربما لا يكون بينهما فرق . إلا بالاختصار فى أحدهما . والتطويل فى الآخر .

---

(١) ص ٩٥ .

(٢) ص ٨٩ .

ولقد تعمدت الإكثار من هذه الشواهد من ناحية ، واتخاذ كتاب « معارج القدس » طرفاً فى هذه النسب من ناحية أخرى ، ليكون دليلا آخر مضافاً إلى ما سيأتى من الأدلة ، على صحة نسبة كتاب « معارج القدس » إلى الغزالى .

٢ — الإكثار من الشواهد الدينية ، ومحاولة رد كل البحوث ، حتى الفلسفى منها ، إلى أصل دينى ، فيخيل للقارئ أنه بصدد موضوعات لا تمت إلى غير الأبحاث الدينية بصلة .

فمثلا نظرية أفلاطون فى تقسيم النفوس إلى ثلاث قوى ، ورد أمهات الفضائل والرذائل إليها ، لا تحتاج من الغزالى إلى كبير عناء ، حتى يستخرجها من قوله تعالى : [إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون »] .

[فالإيمان[1] بالله وبرسوله من غير ارتياب ، هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء ، الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل] .

ونظرية الوسط : لا يعجزه أيضاً أن يردها إلى الآيات والأحاديث [والذى[2] يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين ، أن السخاء خلق محمود شرعاً ، وهو وسط بين طرفى التقتير والتبذير ، وقد أثنى الله تعالى عليه فقال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » ، وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » .

وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام ، الاعتدال ؛ دون الشره والجمود . قال تعالى : « وكلوا ، واشربوا ، ولا تسرفوا ؛ إنه لا يحب المسرفين » . وقال فى الغضب : « أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » وقال صلى الله عليه وسلم : « خير الأمور أوسطها » .

---

(١) ص ١٠٠ ج ٨ الإحياء .
(٢) ص ٤ ج ٨ الإحياء .

وهذا له سر وتحقيق ؛ وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب ، عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى : « إلا من أتى الله بقلب سليم » ، والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا ، وشرط القلب أن يكون سليما منهما ، أى لا يكون متلفتاً إلى المال ، ولا يكون حريصاً على إنفاقه ، ولا على إمساكه : فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق . كما أن الحريص على الإمساك ، مصروف القلب إلى الإمساك . فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً . وإذ لم يمكن ذلك فى الدنيا ، طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين ، وأبعد عن الطرفين ، وهو الوسط ؛ فإن الفاتر لا حار لا بارد ، بل هو وسط بينهما ، فكأنه خال عن الوصفين .

فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير ، والشجاعة بين الجبن والتهور ، والعفة بين الشره والجمود ، وكذلك سائر الأخلاق] .

٣ – الإحالة :

لا تلبث أن تقرأ كتاباً واحداً ، من كتب الغزالى حتى تعرف جملة من أسماء كتبه ، لأنه لا يدع مناسبة لكتاب من كتبه تمر ، دون أن يشير فيها إلى ذلك الكتاب ، ويحيل عليه ، ولما أن موضوعات الكتب وأبحاثها ، متشابهة ، فكثيراً ما تعرض المناسبة .

وهذه الإحالة تدلنا فى جملتها على أن الغزالى لم يهمل شيئاً من كتبه ، ولم يرجع عن شىء مما جاء فيها ، حتى تلك التى ألفها قبل اهتدائه إلى نظرية الكشف الصوفية ، التى تعتبر كل معرفة لا تأتى عن طريقها ظنوناً وتخمينات .

٤ – ضعف الأسلوب :

لا شك أن أسلوب الغزالى غير غامض ، وأفكاره واضحة جلية . تقرأ فلا يخفى عليك شىء مما يريد أن يقول .

ولكنك تحس فى نفسك ، أن صاحب هذه العبارات ، كأنما كتبها ، وقبل أن يعاود قراءتها ، قدمها إلى قرائه . وما كان أحوجها ، إلى أن يعاود قراءتها ،

فيقدم فى الجمل ويؤخر ، ويمحو ويثبت .

ولكن الغزالى لم تكن لديه الفرصة لكل ذلك ، لأنه كان يؤلف فى أحوال ترحال وسفر ، وبلبلة أفكار ، ومنازعات خصوم ، وقد اعتذر هو عن نفسه بهذه الأمور ، فقال فى بعض كتبه[١] :

[فهذا الآن حديث يطول ، ويحتاج إلى إطناب وإسهاب . وقد أعلمتك أنى مشتغل ، مبدد لشمل النفس ، كليل الخاطر] .

وبحق يقول الدكتور زكى مبارك[٢] عنه : « والرجل فى الواقع معذور ، فقد كان يؤلف فى أوقات لا تصلح مطلقاً للتأليف ؛ لأنه يشترط فى المؤلف ما يشترط فى القاضى : من الصحة وهدوء البال] .

ولقد أدرك معاصرو الغزالى هذه الملاحظة ، ووجهوا نظره إليها . فأجاب : بأنه لم يعن بالألفاظ وتنميقها . بل بالمعانى وتجويدها . وأذن لمن يجد خطأ أن يصلحه . وفى رأيى أن مثل هذا الخطأ غير ممكن الإصلاح . لأن إصلاحه أن يصاغ المعنى من جديد ، صياغة أخرى . وهنا لا يمكن أن يقال إنها عبارة الغزالى ولا تأليفه .

رابعاً : جرى الغزالى فى كتبه التى يقدمها للناس ، يقصد بها هدايتهم وإرشادهم ، أن يقيمها على أساس قويم من الدراسات النفسية .

فالناس فى نظر الغزالى ، متفاوتون فى الاستعداد العقلى . والدين فى نظر الغزالى ، سمح سهل ؛ لا يمكن أن ينظر إلى الناس جميعاً ، مع اختلاف مداركهم واستعداداتهم نظرة واحدة . فيكلف كليل الذهن فوق طاقته من المباحث النظرية ، أو يحظر على الطلعة المتوثب ، الذى يستطيع البحث والنظر ، أن يشبع عقله بالبحث والنظر . لذلك يقول[٣] :

[قال الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك ، بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

---

(١) معراج السالكين ص ٩٥ .

(٢) فى كتابه « الأخلاق عند الغزالى » ص ١٢١ .

(٣) ص ١٦ من كتاب « القسطاس المستقيم » .

فعلّم أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم، وبالموعظة قوم ، وبالمجادلة قوم .

فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة ، أضرت بهم ، كما تضر بالطفل الرضيع ، التغذية بلحم الطير .

وإن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة ، اشمأزوا منها ، كما يشمئز طبع الرجل القوى ، من الارتضاع بلبن الآدمى .

وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال ، لا بالطريق الأحسن ، كما تعلم من القرآن ، كان كمن غذى البدوى بخبز البر ، وهو لم يألف إلا التمر ، أو البلدى بالتمر ، وهو لم يألف إلا البر] .

وما دام الأمر كذلك فقد يختلف موقف الغزالى من الناس ، وقد يقدم لكل طائفة منهم من العلوم والمعارف ما يناسبها ، وفى هذا يقول[1] : [الناس ثلاثة أصناف :

(ا) عوام ، وهم أهل السلامة البله ، وهم أهل الجنة .

(ب) خواص ، وهم أهل الذكاء والبصيرة .

(ح) ويتولد بينهم طائفة، هم أهل الجدل والشغب ، فيتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة .

أما الخواص فإنى أعالجهم بأن أعلمهم الميزان القسط ، وكيفية الوزن به ، فيرتفع الخلاف على قرب . وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث خصال :

إحداها ، القريحة النافذة ، والفطنة القوية، وهذه عطية فطرية وغريزة جبلية ، لا يمكن كسبها .

والثانية ، خلو باطنهم عن تقليد ، وتعصب لمذهب موروث مسموع ، فإن المقلد لا يصغى ، والبليد وإن أصغى فلا يفهم .

والثالثة ، أن يعتقد فىّ أنى من أهل البصيرة بالميزان ، ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب ، لا يمكنه أن يتعلم منك »[2] .

---

(١) ص ٨٦ من « القسطاس المستقيم » .

(٢) وهذه هى الشروط التى سيأتى يشترطها الغزالى فيمن يباح له الاطلاع على كتبه التى سماها مضنوناً بها على غير أهلها .

والصنف الثانى ، البله ، وهم جميع العوام ، وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق ، وإن كانت لهم فطنة ، فليس لهم داعية الطلب ، بل شغلتهم الصناعات والحرف ، وليس لهم داعية الجدل .

فأدعو هؤلاء إلى الله بالموعظة ، كما أدعو أهل البصيرة بالحكمة ، وأدعو أهل الشغب بالمجادلة] .

وكما بين لنا موقفه من أهل الحكمة ، ومن العوام ، بين لنا فى موضع آخر من الكتاب[١] موقفه من أهل الجدل ، فقال :

[وأما الصنف الثالث ، وهم أهل الجدل ، فإنى أدعوهم بالتلطف إلى الحق . وأعنى بالتلطف . ألا أتعصب عليهم . ولا أعنفهم ، ولكن أرفق وأجادل بالتى هى أحسن . وكذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى المجادلة بالأحسن ، أن آخذ الأصول التى يسلمها الجدلى ، وأستنتج منها الحق بالميزان المحقق ، على الوجه الذى أوردته فى كتاب« الاقتصاد فى الاعتقاد وإلى ذلك الحد . أى أقف .

فإن لم يقنعه ذلك ، لتشوفه بفطنته إلى مزيد كشف ، رقيته إلى تعليم الميزان][٢] . أى رفعه إلى مرتبة أهل الحكمة .

وكما عرفنا الغزالى هنا بأهل الحكمة وبالعوام عرفنا فى موضع آخر من الكتاب[٣] . بأهل الجدل فقال :

[وأعنى بأهل الجدل ، طائفة فيهم كياسة ، ترقوا بها عن العوام ، ولكن كياستهم ناقصة ، إذ كانت الفطرة كاملة ، لكن فى باطنهم خبث وعناد ، وتعصب وتقليد ، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ، وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم ، أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقراً ، لكن لم يهلكهم إلا كياستهم الناقصة ؛ فإن الفطنة البتراء ، والكياسة الناقصة ، شر من البلاهة بكثير] .

وهذا تصريح من الغزالى لا يحتمل التأويل ، بأنه يقدم للناس ألواناً مختلفة

---

(١) ص ٩٤ .

(٢) وهذا يبين لنا قيمة الاقتصاد فى الاعتقاد فى نظر الغزالى ، وأن المعلومات الواردة فيه ، لم يقدمها إلى الخاصة ، مع أنه أرقى كتبه الكلامية ، بل أرقى كتب الكلام على الإطلاق فى نظره .

(٣) ص ٩٥ .

من المعرفة . وتصريح أيضاً، فى أن من الناس طائفة تخفى عليهم الحقيقة ، لعدم طاقتهم إياها .

لهذا ، فهو يقف منهم الموقف الذى يرى أن الشرع أمر به ، وهو مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وكثيراً ما ردد فى كتبه قوله صلى الله عليه وسلم :

[خاطبوا الناس على قدر عقولهم . أتريدون أن يكذب الله ورسوله] .

فمثله كمثل الطبيب الذى يفد عليه جماعات المرضى ، فيخرجون ، وبيد كل واحد منهم بيان بنوع من الطعام والدواء ، لا يشبه ما بيد الآخرين ، فمن الخطأ أن يقال : أليسوا جميعاً مرضى ! ! فكيف اختلف نوع الدواء ونوع الغذاء ! !

وفى هذا يقول الغزالى[١] :

[فلما رأيتك ورأيت رفقاءك من أهل التعليم ، ضعفاء العقول نزلت إلى حدك ، فسقيتك الدواء فى كوز الماء . وسقتك به إلى الشفاء ، وتلطفت بك تلطف الطبيب بمريضه ، ولو ذكرت لك أنه دواء ، وعرضته فى قدح الدواء ، لكان يشمئز عن قبوله طبعك ، ولا تكاد تسيغه .

فهذا غرضى فى إبدال تلك الأسامى[٢] ، يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، وينكره من ينكره] .

والغزالى إذا كان قد جعل الكتاب الذى اقتبست منه هذه النصوص، فى مخاطبة رجل من أهل التعليم ، فإنه لا يخصه وحده بذلك ، بل هو يخاطب به كل من كان فى مثل درجته من الفهم ، استمع إليه يقول فى آخر الكتاب[٣] :

[فهاكم إخوانى قصتى مع رفيقى ، تلوتها عليكم بعجرها وبجرها ، لتقضوا منها العجب ، وتنتفعوا فى إثبات هذه المحاولات ، بالتفطن لأمور ، هى أجل من تقويم مذهب أهل التعليم ، فلم يكن ذلك من غرضى ، ولكن إياك أعنى واسمعى يا جاره] . . .

---

(١) ص ٦٠ من « القسطاس المستقيم » .

(٢) يعنى استبداله بالاصطلاحات المنطقية القديمة اصطلاحات أخرى كقوله « ميزان التعادل ، وميزان التلازم ، وميزان التعاند » ص ٢٧ .

(٣) ص ١١١ .